ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

مجلة افاق للعلوم
Issn: 2507-7228 – Eissn: 2602-5345
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/351

المجلد: 07 العدد: 02(2022) ص 430-439

ثنائية بربر- عرب في مخبر الايديولوجية الكولونيالية

The Berber-Arab duality in the laboratory of colonial ideology

هزرشي بن جلول

جامعة الجلفة (الجزائر)

Bendjelloul70@yahoo.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
31 أوت 2021

تاريخ القبول:
09 فيفري 2022

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الجزائر
- ✓ البربر
- ✓ العرب

الملخص:

تعالج الورقة مرتكزات الايديولوجية الاستعمارية , ودورها في تضخيم معالم التناقض والصراع بين مكونات المجتمع الجزائري من خلال إثارة نظرية الأصل التاريخي , والاحتلال العربي لمنطقة شمال افريقيا , ونفور البربر من اللغة العربية , وأصولهم اللاتينية , وسطحية إسلامهم . كما تدرس الورقة مظاهر فشل السياسة البربرية التي يربطها المؤرخون والباحثون الذين تمتاز دراساتهم بالنزاهة العلمية والموضوعية بروح المقاومة والممانعة , والتشبث بالحرية التي شكلت ثابتا من ثوابت الفكر السياسي للإنسان الجزائري منذ فجر التاريخ.

Article info

Received
31 August 2021
Accepted
09 February 2022

Keywords:
- ✓ *Algeria*
- ✓ *Berbers*
- ✓ *Arabs*

Abstract :

The paper deals with the foundations of colonial ideology and its role in exaggerating the contradiction and conflict between the components of Algerian society by raising the theory of historical origin, the Arab occupation of North Africa, and the aversion of the Berbers to the Arabic language, their Latin origins, and the superficiality of their Islam. The paper also examines the manifestations of the failure of the barbaric policy, which historians and researchers whose studies are characterized by scientific integrity and objectivity relate to the spirit of resistance and reluctance, and their adherence to freedom, which has been a constant of the political thought of the Algerian man since the dawn of history

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

مقدمة:

مارست فرنسا منذ احتلالها الجزائر سنة 1830 حرب إبادة مادية ومعنوية استهدفت إجبار الجزائريين على الرضوخ والاستسلام . وأمام فشلها في دفعهم نحو القابلية للاستعمار بمفهوم المفكر الجزائري مالك بن نبي , واستمرار المواجهة العسكرية , والمقاومة الثقافية تفطن منظرو الاستعمار من قادة عسكريين , وزعماء سياسيين , ونخبة مثقفة إلى ضرورة اختراق المجتمع من الداخل وتمزيق نسيجه الاجتماعي انطلاقا من مرتكزاته السوسيو-ثقافية , وإعادة تركيبه وفق ما يخدم المشروع الكولونيالي. وعلى هذا الأساس تم تطويع وتوظيف الأنتروبولوجيا والاثنوغرافيا لتقسيم المجتمع الجزائري على أساس عرقي , وإجراء فصل مصطنع للسكان البربر (الأمازيغ) عن السكان العرب بالاستناد للقاعدة الاستعمارية "فرق تسد" **divide to rule** موظفة في ذلك المناهج التربوية , والدراسات الأكاديمية , والأبحاث الاركيولوجية . وقد تم التركيز على مظاهر الاختلاف بين العنصرين في الثقافة , واللغة , والعقيدة , والعادات , واللباس.

أولا : معالم وأسس السياسة البربرية

لدق إسفين بين مكونات المجتمع الجزائري , وتمزيق نسيجه الاجتماعي , وإضعاف مقاومته للوجود الاستعماري , وتغذية الخلاف والصراع بين العرب والقبائل ركزت الدراسات والأبحاث التاريخية الفرنسية على الأصل اللاتيني الروماني للبربر. واستدلوا على ذلك بالنقوش والرسوم المنقوشة على أوانيهم , التي تشبه الأواني المزركشة في إيطاليا. وأشاروا أن السبب في تخلف البربر وانحطاطهم الحضاري مرتبط بانتمائهم للعرب , واعتناقهم للإسلام , وبالتالي فإن تطورهم يمر حتما عبر القطيعة مع العروبة والإسلام , والالتحاق بركب الغرب[1]. ولعل أدق تعبير لإبراز الاختلاف والتمايز بين العربي , والبربري ما عبر عنه أحدهم بالقول : "إن العرب كسالى , خاملون , بطيئون في قرارة أنفسهم , متحجرون وحالمون , باردون وحزانى تقريبا , ومتعصبون. أما البربري فإنه عامل جدي , يملك روح المبادرة , والحس العملي , وهو في الظاهر حركي , انبساطي وحيوي ومرح(...) أنه اقتصادي ونزيه ومحب للإطلاع وهو في أعماقه قليل التدين[2]".

في السياق ذاته رصد الضباط , والباحثون , والعسكريون نقاط الاختلاف بين العرب والبربر في مجموعة من النقاط أهمها أن العربي يتميز فيزيولوجيا بعيونه السوداء , وبشرته السمراء , وبامتهان الفروسية , أما البربري (القبائلي) فيمتهن الفلاحة ,قليل التدين , شعره أشقر وعيونه زرقاء. كما اعتبر العربي بدوي , وبدائي, وكسول بينما القبائلي متحضر , ومجتهد , ومنتج , وقابل للاندماج أكثر من العربي في بوتقة الحضارة الغربية[3]. وبناءا على ما كتبه وارنييه فإن السكان الأصليين للمنطقة هم البربر وأنهم مازالوا يحافظون على تقاليدهم الرومانية , وأنهم اعتنقوا الاسلام على مضض ولذلك ظل سطحيا بدليل استمرار احتكامهم للعرف البربري بدل الشريعة. كما يتميز البربري بالتسامح ,والمهارة العسكرية , وأنه أقر إلى الحضارة الفرنسية. وهو نفس ما ذهب إليه لويس رين الذي نسب البربر إلى الجنس الهندو-أوروبي وأنهم لم يعتنقوا الاسلام بحرارة بدليل استمرارية حركات التمرد وشيوع الحركات الانفصالية[4]. ولإقرار التفوق العرقي للقبائل وتكريس الوصف المتناقض للبربري الطيب والعربي السيئ , والترويج لفكرة التكامل الفرنسي-البربري[5] سجل العقيد دوما **Deumas** و النقيب فابار **Fabar** مجموعة من الاختلافات بين القبائلي والعربي وأنهما معدنين لا يمكن صهرهما كيمياويا[6] . وفي سياق أدلجة التاريخ , وتسييس أبعاده , ومنطلقاته انخرط المؤرخون الفرنسيون في المشروع الاستعماري من خلال تبني مجموعة من الأحكام الخاطئة , والمتحيزة القائمة على التحريف والتزوير للحقائق التاريخية. ولذلك أصبح الفتح العربي الاسلامي لبلاد المغرب استعمارا لا يختلف عن باقي الاحتلالات الأجنبية الأخرى[7], وأن الهدف منه لم يكن نشر الإسلام والعدالة بقدر ما كان يروم بسط النفوذ, والهيمنة, وتكديس الثروة, وتشييد الامبراطوريات, واستنزاف الخيرات والموارد, وسبي النساء. كما

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ركزت الكتابات الغربية التي تناولت العصر الوسيط على شدة مقاومة البربر للفتح الاسلامي وعلى الطابع الوحشي للعرب في تعاملهم مع السكان المحليين , وذلك من خلال اختيار الروايات التاريخية التي تسمح لهم باستنتاج آراء تنسجم واتجاهاتهم العقائدية والسياسية[8]. وهي تكرار لمقولات المدرسة الاستعمارية وأبحاث المستشرقين. وقد كان هدف تلك الدراسات خاصة الفرنسية ترسيخ استعمارها للجزائر كونها وريثة روما في المغرب العربي. كما تم تجاهل الفترة العربية الاسلامية التي ارتبطت بالفتح من خلال البحوث التاريخية والأركيولوجية عبر التركيز على الآثار الرومانية و التقليل من مكانة القادة والزعماء الأمازيغ الذين ارتبطوا بمواجهة الآخر/المسيحي كطارق ابن زياد , ويوسف بن تاشفين , ولالا فاطمة نسومر , عبد الحميد بن باديس مقابل ابراز الشخصيات البربرية التي اشتهرت قبل الفترة الاسلامية مثل ماسينيسا , ويوغرطة , والكاهنة , وكسيلة , وتكفاريناس.[9]

ثانيا : التآمر على زواوة

بعد أن ركز الفرنسيون على إبراز التناقض والاختلاف بين العرب والبربر فيزيولوجيا , ودينيا , ولغويا عرفت فترة نهاية القرن 19 بداية التركيز على البربر وحدهم. وقد شمل ذلك عدد من المجالات يمكن الاشارة إليها فيما يلي :

في المجال الديني : أدرك الفرنسيون بعد مدة وجيزة من احتلالهم الجزائر أن سبب اتساع دائرة الرفض والمقاومة للوجود الكولونيالي من خلال اندلاع الثورات الشعبية في الجزائر مرتبط بالاسلام الذي يعد بمثابة "العائق الرئيسي لنجاح المشروع الاستعماري بالجزائر لتشبث الجزائريين بالإسلام وتمسكهم بقيمه"[10]. وعلى أساس ذلك اعتبر القادة العسكريون ورجال الكنيسة أن احتلال الجزائر , واستمرارها كجزء لا يتجزأ من فرنسا يمر حتما عبر اضعاف الشعور الديني , واجتثاث الاسلام من جذوره عبر حركة التبشير. وإذا كانت حركة التنصير قد ارتبطت بلحظة الاحتلال من خلال خطب قادة الجيش , وتصريحات رجال الدين , وتجسدت على أرض الواقع من خلال الاجراءات المتخذة في مختلف المناطق الجزائرية خلال الفترة الاستعمارية , فإن الدراسات والأبحاث التاريخية سواء العربية أو الفرنسية قد أشارت إلى أن حركة التبشير قد ركزت على منطقة القبائل من خلال البعثات التبشيرية , وإنشاء المراكز والجمعيات , وتقديم المساعدات للمحتاجين كما كان يفعل لافيجري.[11] ويعود ذلك إلى كون منطقة القبائل بالنسبة للمشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر "المخبر الحقيقي الكفيل بإنجاح النموذج المأمول لمجتمع الأهالي المسيحي العقيدة والفرنسي الثقافة , بحيث يكون بمثابة القاطرة التي تجر باقي الجزائريين إلى الخروج من الاسلام , وإتخاذ موقف معاد من الحضارة العربية الاسلامية ومرتبط بالحضارة الاوروبية المسيحية"[12] .

في السياق ذاته نشط القس شارل دو فوكو في تمنراست , وانصب إهتمامه على تمسيح الطوارق.

كما أصبح الاحتكام في زواوة للعرف البربري[13] , والقانون الفرنسي بدل الشريعة الاسلامية , وفرض على قضاة المنطقة تحرير أحكامهم باللغة الفرنسية فقط خلافا للقضاة في المناطق الأخرى التي كانوا يحررون فيها أحكامهم باللغة العربية.[14]

في المجال التعليمي : انطلق الموقف الفرنسي في هذا المجال من حتمية محاربة اللغة العربية , والسعي إلى اجتثاثها في منطقة القبائل وإحلال القبائلية محلها كمقدمة لفرنسة سكان زواوة. وعلى هذا الأساس أنشأ الفرنسيون كرسيا للغة البربرية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس وفرعا للغة القبائلية فقط في مدرسة الجزائر[15] , وألفوا قواميس فرنسية بربرية[16] ووضعوا قواعد للهجة البربرية[17].

وفي سنة 1885 أنشئ بمدرسة الآداب بالجزائر كرسي للهجات البربرية التي تتوج بتسليم شهادة للغة القبائلية يترتب عنها تسليم منحة سنوية قدرها 300 فرنك , وتسلم شهادة بمستوى أعلى موجبة لمنحة قدرها 500 فرنك. كما أسس الفرنسيون قسما قبائليا في مجلس الوفود المالية وميزوا بعض القبائل بعدم دفع قسط من الضرائب المفروضة على الأهالي.[18] وتماشيا مع سياسة فصل وعزل سكان منطقة زواوة عن الفضاء العربي ألغى الحاكم العام شارل جونار تسمية المكاتب العربية في المنطقة سنة

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

1904 وسماها مكاتب الشؤون الأهلية وكان الهدف من ذلك محاربة التعريب في المنطقة[19].

ثالثا : مدى نجاح السياسة البربرية

تذهب أغلب الأبحاث والدراسات التي تناولت السياسة البربرية التي انتهجتها الادارة الكولونيالية الفرنسية في الجزائر خلال فترة الاحتلال إلى ابراز مظاهر النجاح والفشل التي رافقت تلك السياسة.

مظاهر النجاح : من مظاهر النجاح التي حققتها الادارة الاستعمارية من خلال السياسة البربرية خلق نخبة فرنسية الثقافة , علمانية التوجه , معادية لمحيطها العربي – الاسلامي. ويبرز ذلك من خلال كتابات بعض أقطابها. فحسين الأحمق المدعو هسناي لاهماك **Hesnay-Lahmek** نشر سنة 1931 كتابا بعنوان " رسائل جزائرية" أكد فيه أنه يشعر بالقرب من سانت أوغستين أكثر من شعوره بالقرب من عقبة بن نافع. كما تضمن عبارات من قبيل " الاحتلال العربي" , و "نحن لاتينيون" , وأنه "لا يكن حبا للاسلام". أما المحامي بلقاسم إباعزيزن **iba zizan** فقد أكد أن) القبائلي ليس من "الجنس السامي" ولكن متوسطي أرغمه التاريخ على اللجوء إلى أعالي جبال جرجرة وهو ذو حساسية قريبة من "الشعوب اللاتينية" .. وليس للشاب القبائلي آلهة ولا حضارة اسلامية ولا عبادة محمد , وأن الكتلة القبائلية المدمجة في فرنسا مثل جزيرة **Corse** وإقليم **Bretagne** ومنطقة **(..) Le Pays Basque** أفشل أي حركة قومية إسلامية نبعت من الشرق للوصول إلى شمال افريقيا عن طريق تونس لإدماج الشعب القبائلي برمته .[20](وفي سنة 1936 كتب المعلم المتقاعد زناتي مؤسس صحيفة "صوت الضعفاء" : " من الواضح أن مفهوم الجامعة الاسلامية غير موجود في الجزائر وأن الأهالي لا يعارضون السيادة الفرنسية ولا يحاولون التملص منها (...) إن الأهالي أوفياء لفرنسا بشكل كامل ونهائي"[21]. وإذا كان بعض الباحثين يعيد ظهور النزعة البربرية إلى القرن التاسع عشر ويربطها ببروز الأفكار القومية في أوربا، فإن بن خدة يحددها بسنة 1946-1947 بالقول: "..ففي تلك الفترة ظهرت جماعة من المناضلين الشباب المنحدرين من منطقة القبائل و قد راعهم ما رأوا من مجازر رهيبة في ماي 1945 بالقطاع القسنطيني و ما تعرضوا له من قمع فظيع في منطقة القبائل و استاءوا لصدور الأمر بالتمرد ثم الأمر المضاد"[22]. و إذا كانت الدوافع الحقيقية التي حرّكت هؤلاء كانت ذات طابع وطني، فإنها بدأت تتطور و تتسع دائرة الداعين لها من خلال الأساليب التي تبناها دعاتها ، و التي يمكن رصدها فيما يلي:

- الإلحاح الدائم على الهوية البربرية، و التنكر للبعد الحضاري العربي-الإسلامي. و يعود ذلك لتأثرهم بما كان يدعو له منظرو الإستعمار، و الشيوعيون الذين كانوا يعتقدون بأن الجزائر "أمة في طور التكوين."
- تجنيد الأنصار في الوسط الطلابي بالعاصمة، و منطقة القبائل ،و محاولة دفعهم لتبني أطروحاتهم.
- القدح في قيادة الحزب لزعزعة سلطته ، و التشكيك في نهجه السياسي و بعده العربي –الإسلامي.[23]

و في سياق إبرازه للعوامل، و الدوافع التي ساهمت في ظهور و صيرورة النزعة البربرية ، يبرز لنا المجاهد يوسف بن خدة عاملين أساسين هما: جهل هؤلاء بأسس الثقافة العربية- الإسلامية بحكم طبيعة تكوينهم الثقافي، و نكبة فلسطين.[24]

وإذا كانت النزعة البربرية قد ظلت مجرد أفكار و تصورات في مخيلة دعاتها في الجزائر، فإنها قد وجدت في فرنسا التربة الخصبة لنموها. و كان محند علي يحي من أبرز المحرضين و الداعين لها بحكم عضويته في اللجنة القيادية لفيدرالية الحزب بفرنسا. و قد تمكن من دفع اللجنة الإدارية إلى التصويت على لائحة تدين"أسطورة الجزائر العربية الإسلامية ".و أمام هذه الوضعية أرسلت قيادة الحزب في الجزائر كلا من شوقي مصطفاي و الصادق سعيدي لفرنسا لينظم إليهما لاحقا محمد خيضر،وراجف بلقاسم لدراسة أسباب الأزمة و البحث عن حل لها. وبسبب خطورة تلويث هياكل الحزب بنسبة 80% ،و عدم سماح أصحاب النزعة البربرية لهم بالإتصال بالقاعدة الشعبية ، دخل مندوبو القيادة الوطنية في صراع مع دعاة البربرية إستطاعوا من خلالها إسترجاع مقرات الفيدرالية، و

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

إعادة هيكلة ،و تأسيس فيدرالية الحزب بفرنسا من جديد . و نتيجة ذلك تبنت قيادة الحزب مجموعة من الإجراءات، كان من أبرزها تبني خط سياسي يرتكز على دحض النظرية العرقية ،و إستثارة الروح الوطنية ،و فصل كل العناصر التي تسببت في الأزمة.[25]

أما في الجزائر، و رغم علم إدارة الحزب بوجود مؤامرة تدار في الخفاء ، وتستهدف وحدة الحزب،فإنها لم تتسرع في اتخاذ أية تدابير إلا عندما امتلكت دليلا ماديا يدين أصحابها، والذي تمثل في رسالة بعثها عمر أوصديق من السجن إلى واعلي بناي يشير فيها إلى "..مساع حثيثة لهيكلة تنظيم حزبي داخل الشعب-حركة انتصار الحريات الديمقراطية يسمى حزب الشعب القبائلي"[26]. و على إثر ذلك اتخذ الحزب قرارا بفصلهم.

وإذا كانت النزعة البربرية قد لوثت الهياكل التنظيمية للحزب في فرنسا بنسبة 80% فإن صداها في منطقة القبائل كان ضعيفا، حيث لم تنظم و لو قسمة واحدة من أصل 12لدعاة البربرية[27]. أما عن موقف آيت أحمد حسين من الأزمة ،و الذي كان آنذاك يرأس المنظمة الخاصة ،فقد أوضح يوسف بن خدة أن قيادة الحزب كانت تعتقد بأنه العقل المدبر لها. غير أنه تبرأ منها، و من دعاتها عندما طلب منه إتخاذ موقف محدد لكنه كشف في مذكراته التي نشرها بسنة 1983 أنه كان على علاقة بالنزعة البربرية ،و أنه لم يتوقف يوما على المطالبة بالهوية البربرية ، و إذا كان بن خدة لم يطعن في وطنية آيت أحمد،و لا في مسار نضاله السياسي، و لا في التضحية بمستقبله الدراسي لتجسيد مبادئ و أهداف الحزب، إلا أنه ذكر مجموعة من الأدلة التي تؤكد على إنخراطه ، و لو بشكل غير مباشر في الأزمة من خلال:

تمجيده الدائم لمنطقة القبائل، و التنويه بها على حساب باقي مناطق الوطن الأخرى.

تضخيمه لعدد المنخرطين في حزب الشعب-حركة إنتصار الحريات الديمقراطية من أبناء منطقة القبائل،و الذي فنده بن خدة من خلال إبراز التناقض في أرقام المناضلين التي تضمنتها مذكراته، و من خلال إعتماده على شهادة أحمد بودة، و السعيد عمراني.[28]

وإذا كانت النزعة البربرية قد تسببت في إحداث البلبلة، و الإضطراب في أذهان بعض المناضلين في منطقة القبائل ،و محاولة دفعهم لتبني مواقف متشنجة ضد قيادة الحزب من خلال ترويج إدعاءات ضد العرب و المسلمين مستوحاة في الأصل من أدبيات الحزب الشيوعي، فإنها فشلت بسبب وطنية سكان المنطقة التي تجسدت أبرز صورها في رفض التماهي مع الإستعمار من خلال إنخراطهم في فعل المقاومة ضد الفرنسيين كثورة لالا نسومر، والمقراني، و الشيخ الحداد. كما يعود ضعف النزعة البربرية إلى " تشبث السكان بالروح الدينية التي بثتها الزوايا بإعتبارها أحسن المدافعين عن الإسلام و اللغة العربية.[29]"

في السياق ذاته تأثر الشيخ أبو يعلى الزواوي بالسياسة البربرية وأصبح يركز في مرحلة محددة على الوطنية "الزواوية" بدل الوطنية "الجزائرية" قبل أن ينضم إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ويصبح من دعاة الوحدة الوطنية. وحسب المؤرخ سعد الله فإن الشيخ أبو يعلى قد طلب من الشيخ طاهر الجزائري أن يؤلف كتابا حول تاريخ زواوة , وأن الأخر قد رفض بسبب عقيدته القوية في العروبة والإسلام. كما كان الشيخ طاهر يرى أنه شخصية عالمية في المسار العربي الاسلامي[30]. وتبدو خطورة الخطوط العريضة لكتابة تاريخ زواوة في بعض جوانبها في اعتماده على آراء بعض الفرنسيين من أن أهل زواوة من الجنس الآري الأبيض , وأنهم مميزون عن غيرهم. ورغم ذلك فإن أبي يعلى الزواوي قد طرح "قضية عروبة أهل زواوة بكل وضوح. فهم في نظره قد أصبحوا عربا بحكم الاستعراب , وأن لغتهم هي اللغة الحميرية.[31]"

مظاهر الفشل : رغم كل المجهودات والامكانيات التي سخرها الفرنسيون لتمسيح منطقة القبائل وفصلها عن فضائها العربي - الاسلامي ودمجها في المجال الحضاري الأوروبي المسيحي إلا أن تمسك الفرد القبائلي بالاسلام قد أفشل المشروع الاستعماري. ويظهر ذلك من خلال:

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

انخراط القبائل في أغلب المقاومات الشعبية , والانتفاضات المحلية التي كان القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مسرحا لها. ومن الأمثلة على ذلك مقاومة الشريف محمد بن عبد الله الملقب ببوبغلة (1851-1854) ومقاومة لالى فاطمة نسومر (1854-1857) وثورة المقراني والشيخ الحداد 1871[32].

دور رجال الزوايا والطرق الصوفية في رفض الفرنسة , ومحاربة التنصير , والتجنيس , والادماج من خلال التمسك بالمنظومة الحضارية, والتاريخية , والدينية للشعب الجزائري.

التركيز الدائم على المطالب اللغوية والدينية في برامج الجمعيات الثقافية , التنظيمات الطلابية , والأحزاب السياسية الجزائرية والتي كان المثقفون والسياسيون من منطقة القبائل يشكلون جزءا كبيرا من مناضليها , وقادتها.

عدد كبير من أقطاب حركة الاصلاح التي كانت تمثلها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كالشيخ الفضيل الورثلاني , وأبو يعلى الزواوي , والمولود الحافظي , والهادي الزروقي الذين كانوا من منطقة القبائل , وعبروا من خلال نضالهم , وكتاباتهم الصحفية على تمسكهم , واعتزازهم بالبعد العربي للجزائر. وإذا كانت فرنسا قد دأبت على إثارة الصراعات العرقية بين العرب والقبائل –كما سبق الاشارة إلى ذلك- فإن الشيخ عبد الحميد بن باديس قد تصدى لتلك السياسة وكتب مقالا تعمد إن يوقعه بإسم "عبد الحميد بن باديس الصنهاجي" وعنونه بـ "ماجمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان" أكد فيه أن "أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الاسلام منذ بضعة عشر قرنا , ثم دأبت تلك القرون تمزج بينهم في الشدة والرخاء وتؤلف بينهم في السر والعلن وتوحدهم في السراء والضراء"[33]. والواقع أن الشيخ عبد الحميد بن باديس وبقية الوطنيين من منطقة القبائل لم يشعر أحد منهم بالتناقض بين أصوله العرقية وارتباطه بالعروبة بمفهومها الثقافي , والإسلام ببعده الحضاري. والدليل على ذلك أن البعض منهم داخل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كان يحاضر بالقبائلية. كما يظهر اعتزاز الشيخ عبد الحميد بن باديس بالثقافة العربية , وتمسكه بالإسلام , ودفاعه عن الوحدة الوطنية للجزائر , ومواجهته للسياسة الثقافية الفرنسية في شعار جمعية العلماء : "الإسلام ديننا , والعربية لغتنا , الجزائر وطننا".

وقد أكد ذلك في قصيدته المشهورة التي يبدأها بقوله :

شعب الجزائر مسلم ***** وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله ***** أو قال مات فقد كذب

ويختمها بقوله :

هذا لكم عهدي به **** حتى أوسد في الترب

فإذا هلكت فصيحتي : **** ((تحيى الجزائر والعرب))[34]

وفي مقال يحمل أكثر من دلالة وقيمة , ويعكس الإدراك الحقيقي لمفهوم العروبة التي تتجاوز العرق والسلالة أكد ابن باديس أن تكوين الأمم لا يتوقف على إتحاد دمائها أو انحدارها من سلالة واحدة بقدر ما يتوقف على اتحاد قلوبها , وأرواحها , وعقولها إتحادا يظهر في وحدة اللغة وآدابها , واشتراكها في الآلام والأمال[35]. وفي مقال آخر تحت عنوان "الوطن والوطنية" حرص على تحقيق التوازن بين المحلية والعالمية من خلال تقسيم رؤية الناس ازاء الوطنية إلى أربعة أقسام : " فهناك قسم لا يعرفون إلا أوطانهم الصغيرة وهؤلاء هم الأنانيون , وهناك قسم يعرفون وطنهم الكبير , يفعلون في سبيله كل ما يرون فيه خيره ونفعه , ولو بإدخال الضرر والشر على الأوطان الأخرى , وهناك قسم ثالث زعموا أنهم لا يعرفون إلا الوطن الأكبر وأنكروا وطنيات الأمم كما أنكروا أديانها وعدوها مفرقة بين البشر , وهؤلاء عاكسوا الطبيعة جملة وما عرفته البشرية منذ آلاف السنين.[36]''

في السياق ذاته انتقد الشيخ محمد البشير الابراهيمي تخصيص السلطات الفرنسية برامج في اذاعتها وكتب "ما هذه النغمة السمجة التي ارتفعت قبل سنين بإذاعة الأغاني القبائلية , وإذاعة الاخبار باللسان القبائلي. أكل هذا انصاف للقبائلية وإكرام لأهلها , واعتراف لحقها في الحياة, وبأصالتها في الوطن , كلا إنه تدجيل سياسي على طائفة من هذه الأمة , ومكر استعماري بطائفة أخرى وتفرقة شنيعة بينهما , وسخرية عميقة بها"[37]. وقد يكون شعور الشيخ أحمد توفيق المدني بخطر السياسة البربرية على منطقة القبائل , وما قد يترتب عنها من نتائج سلبية هي التي دفعته إلى القول : "إن بلاد الزواوة

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

اليوم قد اصبحت من الجهتين الاسلامية و العربية في خطر كبير "[38]. كما أشار الفضيل الورتيلاني إلى قوّة علاقة الجزائريين بالعرب والمسلمين في الشرق رغم محاولة الفرنسيين: "... قطع كلّ صلة بين المغرب وبين البلاد العربية والإسلامية، ويقيم في سبيل ذلك ستارًا حديديا، فهو يأبى أن يتبادل عرب شمال إفريقيا، مع إخوانهم العرب والمسلمين في مختلف البلاد الصلات المادية وغير المادية، ويحاول قطع الصلات الروحية، والشعور بالأخوّة، وإتحاد الغايات، وتقارب المقاصد"[39]. ولم يكتف بعض مناضلي منطقة زواوة بدورهم الوطني بل لعبوا دورا كبيرا في النهضة العربية الحديثة , وفي حركة التحرر القومي العربي[40].

وإذا كانت هجرة الجزائريين لم ترتبط نحو الخارج عمومًا بالهروب من الواقع الاستعماري ، والبحث عن مكان آمن فقط، ولا بتحسين أوضاعهم الإجتماعية والإقتصادية فقط، ولكنه إرتبط بمواصلة النضال من أجل القضية الوطنية وفضح السياسة الإستعمارية الفرنسية، وكذلك بالدفاع عن القضايا العربية الإسلامية والمشاركة في تحرير البلدان المستقبلة لهم سياسيا وثقافيا. وإذا كانت مساحة البحث وإطاره الزماني لا تسمح بإبراز دور كل رجالات العلم والفكر والثقافة الجزائريين في سوريا، فإننا نكتفي بإبراز بعض الأمثلة والنماذج فقط.

وفي هذا المجال يُعتبر الشيخ طاهر الجزائري(الأمازيغي)[41] أنموذجاً حقيقيا لنشاط الجزائريين في الخارج لمقاومة التتريك. ويمكن إبراز مظاهر تلك المقاومة في:

الإهتمام بأمجاد العرب الغابرة، وذلك من خلال الإهتمام بالتاريخ العربي تدريسا وتأليفا، والتركيز على محطات الإشعاع التي رافقت مسيرة العرب التاريخية ،وذلك قصد غرسه في الأجيال الناشئة.

الإهتمام بالحضارة العربية الإسلامية، وإحياء التراث من خلال تأليف الكتب، وتأسيس دار الكتب الظاهرية في دمشق، والمكتبة الخالدية في القدس.

الإهتمام بالترجمة والتعريب كمنطلق للرقي والنهضة، من خلال الإحتكاك بالتيارات المعاصرة، والإستفادة من منجزات الحضارة الغربية مع الحفاظ على ماهية الأمة، ومنطلقاتها الفكرية والحضارية[42]. ويظهر أن تركيزه على النهضة الفكرية في بلاد الشام يدخل في إطار تجاوزه حالة الجمود الفكري الذي ميّز الوطن العربي و العالم الإسلامي خلال تلك الفترة. ويرتبط أيضا بمواجهة سياسة التتريك الثقافي و الإستعلاء العرقي والعنصري التي مارسها الأتراك على عرب المشرق. و يعترف الكثير من أعلام الفكر والإصلاح الذين عاصروه بدور الشيخ طاهر. فقد كتب أسعد داغر بأن الشيخ قد أفنى عمره في "التنقيب عن الكتاب العربي مطبوعا ومخطوطا، وفي إحياء الخير منه فكان بذلك من أبرز علماء (البيبليوغرافيا)"[43]، وسجّل محمد كرد علي :" وكم من كتاب ورسالة نشرت بتنشيطه أو تصحيحه، أو تعليقه، فكان همه الأكبر إحياء آثار العرب ثم التعريب عن أمم الحضارة الحديثة "[44] . أما محب الدين الخطيب فقد كتب : " .. وأهم كتب السلف النافعة التي نشرها الناشرون ، إنما نشروها بإشارته وتحريضه، وأنا و كل ما نشرته لسنا إلا قطرة من بحر الخير الذي كان يتدفق من صدر هذا العالم العامل"[45]. ويُعتبر الشيخ طاهر الجزائري واحدًا من رواد الإصلاح في الفترة الحديثة الذي شعر بمدى الإنحطاط الذي كان يلُفُّ العالم الإسلامي. وقد أرجع ذلك إلى الإستبداد وسوء الإدارة العثمانية. ولذلك ركّز في دعوته للإصلاح، ومُحاربة التتريك، وتجاوز حالة الإنحطاط الحضاري[46]،على إنشاء الجمعيات، والحلقات العلمية ذات المضمون السياسي. ومن هذا المنطلق أسّس حلقة دمشق الكبرى، التي تُعتبر آنذاك أكبر حلقة أدبية وثقافية جمع من خلالها رجال العلم والمعرفة داعيا إلى تعليم العلوم العصرية، والعناية بتاريخ العرب وتراثهم العلمي.[47]

وقد خلّف نشاط الشيخ طاهر الجزائري ثورة فكرية، وجدت متنفسا لها في الإنقلاب العثماني. كما غرست في نفوس الشباب العربي الرغبة في التحرر، والإعتزاز بالأمة العربية، وبماضيها الحافل بالبطولات والأمجاد[48]. هذا النشاط الذي أبداه الشيخ طاهر في الدفاع عن العرب وماضيهم التاريخي دفع بأحد الباحثين إلى إعتبار " دعوة الكواكبي وحلقة الشيخ طاهر

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الجزائري قد مهدتا الطريق لتشكيل الجمعيات والمنظمات السرية لمقاومة الإستبداد التركي في مطلع القرن العشرين."[49]

وفي سياق رفض منطقة القبائل للسياسة البربرية , والتزامهم بالوحدة الوطنية يمكن الاشارة إلى مواجهة القبائل للقسم القبائلي في مجلس الوفود المالية[50] ومطالبة ممثلين عن الزواوة بالثقافة العربية وذلك بإنشاء مدرسة في بجاية على غرار المدرسة الشرعية-الفرنسية في كل من تلمسان , وقسنطينة والعاصمة. كما رفض القضاة المسلمون في زواوة تسجيل أحكامهم باللغة الفرنسية وظلوا يحررون بالعربية أسوة بالقضاة كلهم في الجزائر[51].

الخاتمة : من خلال دراستنا للسياسة البربرية الفرنسية في الجزائر من خلال ثنائية بربر _عرب في مخبر الايديولوجية الاستعمارية يمكن استنتاج مايلي:

الاهتمام باللسان القبائلي والدعوة لإحيائه , ونشره , وتدريسه لم يكن موجها لخدمة التراث القبائلي بقدر ما كان موجها لخدمة للثقافة الفرنسية , وتعزيز مكانية اللغة الفرنسية , وترسيخا للقيم العلمانية والتوجهات اللائكية داخل المجتمع الزوازي. ولعل تماهي النخبة القبائلية المؤمنة بالسياسة البربرية كحواس معتوقي , وحسين لحمق , وبلقاسم ايبعزيزن , وكاتب ياسين , ومولود معمري إلا دليلا على ذلك.

ارتكز المشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر خلال مرحلة السيطرة الكولونيالية على اجتثاث الاسلام باعتباره اسمنت الوحدة الوطنية , وعلى فرنسة منطقة القبائل كوسيلة لمواجهة اللغة العربية وإضعاف وجودها وتأثيرها في منطقة القبائل.

لم يوظف الفرنسيون الدراسات والأبحاث لخدمة المعرفة التاريخية بكل ما يرتبط ذلك من حياد , ونزاهة , وموضوعية بقدر ما تم توظيف تلك العلوم لإنجاح المشروع الاستعماري.

فشل النزعة البربرية في تحقيق أهدافها التي رسمها منظرو الإستعمار يرتبط بتشبع سكان المنطقة بالقيم الوطنية، و الدينية التي رسّختها حركة النضال ضد المحتل عبر مختلف الحقب التاريخية ،وجذورها ، و دور الزوايا و علماء الدين الذين كرسوا قيم الوحدة ،و مفهوم الخلاص الجماعي في مواجهة الآخر-الغازي.

كان أغلب أقطاب النزعة البربرية من ذوي التكوين الثقافي الفرنسي المتأثرين بأطروحات المدرسة التاريخية الفرنسية ، مقابل جهلهم التام بأسس و مرتكزات الثقافة العربية ،الإسلامية القائمة على مبدأ المساواة بين الأجناس و الشعوب.

أغلب الذين قاوموا النزعة البربرية كانوا من منطقة القبائل مما يؤكد على وطنية ، ودور سكانها في مقاومة الاحتلال ، وتمسكهم بانتمائهم الحضاري، وإصرارهم على ضرورة التلاحم والانصهار بين مختلف مكونات الشعب الجزائري.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الهوامش

1. أحمد , بن عمان , فرنسا و الأطروحة البربرية , ط1, منشورات دحلب , الجزائر , 1991, ص 151.
2. Ageron (Charles-Robert) : Histoire de l'Algérie contemporaine, t. II, 1871-1954 , Paris , 1982 , p 223.
3. ناصر الدين , سعيدوني , في الهوية والانتماء الحضاري , طبعة خاصة , البصائر للنشر والتوزيع , الجزائر , 2013 , ص 181.
4. ناصر الدين , سعيدوني الجزائر منطلقات وآفاق , ط1 , دار الغرب الاسلامي , لبنان , 2000 , ص 78.
5. Philippe Lucas et Jean-Claude Vatin, L'Algérie des Anthropologues, La Découverte, Paris , 1982 , p p 112.
6. M. Daumas, M. Fabar, La Grande Kabylie : études historiques , Hachette, Paris , 1847 , p p 20-77.
7. محمد, بودهان, في الهوية الأمازيغية للمغرب, منشورات تاويزا, ط2, المغرب, 2013, ص 19
8. محمد , بن عميرة , حول منهج كتابة المؤرخين الفرنسيين لتاريخ الفتح الاسلامي لبلاد المغرب , مجلة الدراسات التاريخية , العدد 5 , معهد التاريخ , جامعة الجزائر , 1988, ص 87.
9. سعيدوني , في الهوية , مرجع سابق , ص 199.
10. المرجع نفسه , ص ص 241-242.
11. خديجة , بقطاش , الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1871 , ط1 , منشورات دحلب , الجزائر, 2007 , ص ص 125-170.
12. سعيدوني , في الهوية , مرجع سابق ص 246.
13. جمال , كركار , العرف والعمل الجزائري وأثرهما في الفتاوى والأحكام. منطقة الزواوة خلال فترة الاحتلال أنموذجا , ط1 , منشورات المجلس الاسلامي الأعلى , الجزائر , 2012 , ص ص 268-269.
14. أبو القاسم سعد الله , تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954 , ج 6 , ط1 , دار الغرب الاسلامي , لبنان , ص 321
15. المرجع نفسه , ص 322
16. Ch. Brossard, Dictionnaire francais-berbere avec le concours di sidi Ahmed ben EL-Hadj Ali, Paris , 1844
17. Jean-Michel Venture de Paradis , Grammaire et dictionnaire abrégés de la langue berbère , Paris , 1844.
18. مصطفى , نويصر , الدعوة إلى البربرية والدارجة صناعة استعمارية , الشروق العربي , العدد 5619 , 20 أفريل 2018 , ص 13.
19. سعد الله , المرجع السابق 324
20. غي , برفيليي , النخبة الجزائرية الفرانكفونية 1882-1962 , ترجمة : م. حاج مسعود , دار القصبة للنشر , الجزائر , 2007 , ص 406.
21. المرجع نفسه , ص 412.
22. يوسف، بن خدة، جذور أول نوفمبر 1954 ، ترجمة مسعود حاج مسعود، ط2 ، دار الشاطبية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2012 ، ص 236.
23. نفسه ، ص 239.
24. نفسه ، ص 240.
25. نفسه ، ص ص 241-242.
26. نفسه ، ص 244.
27. نفسه ، ص 245
28. نفسه ، ص ص 248-249.
29. نفسه ، ص 254.
30. أبو القاسم , سعد الله , آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر , ج2, طبعة خاصة , دار البصائر , الجزائر , 2007 ص 148.
31. المرجع نفسه , ص 150.
32. للاطلاع على دور أبناء منطقة القبائل في في المقاومات الشعبية أنظر : يحي بوعزيز , ثورات الجزائريين في القرنين التاسع عشر والعشرين , ط1, منشورات متحف المجاهد , الجزائر , 1996.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

33.عبد الحميد , ابن باديس , آثار ابن باديس , ج3 , ط3 ,اعداد وتصنيف عمار الطالبي , الشركة الجزائرية , الجزائر , 1997 , ص 483.
34.أنظر الشهاب , ج3 , م 13 , أكتوبر 1937 , ص ص 200-202.
35.حسن عبد الرحمن , سلوادي , عبد الحميد بن باديس مفسرا , ط1 , المؤسسة الوطنية للكتاب , الجزائر , 1988 , ص 339.
36.عبد الحميد , ابن باديس , آثار ابن باديس , ج4 , ط3 ,اعداد وتصنيف عمار الطالبي , الشركة الجزائرية , الجزائر, 1997 ,ص 17
37.محمد البشير , الابراهيمي , عيون البصائر , ط1 , دار الغرب الاسلامي , لبنان , 1997 , ص223
38.أحمد توفيق , المدني , كتاب الجزائر ,المطبعة العربية , الجزائر , 1932, ص 110
39.الورتلاني، الفضيل ، الجزائر الثائرة ، دار الهدى ، الجزائر ، 1992 ، ص342.
40.لدراسة دور الجزائريين في النهضة العربية وحركة التحرر القومي أنظر : سهيل , الخالدي , الجزائر وبلاد الشام صفحات من النضال المشترك ضد الاحتلال , ط1 , دار الأمة , الجزائر , 1997 , ص ص 349-510.
41.هو الشيخ الطاهر بن صالح بن أحمد بن موهوب السمعوني الجزائري أصلا الدمشقي مولدا ومقاما. هاجر والده من بني وغليس بالقبائل إلى سوريا وهناك تولى قضاء المالكية وأصبح أديبا وشاعرا. إهتم بالإصلاح الديني والاجتماعي والثقافي. إنخرط في العمل السياسي ومحاربة الإستبداد. أزعج نشاطه السلطة التي حاصرته في وظيفته. ونتيجة ذلك هاجر إلى القاهرة. عيّن مديرا لدار الكتب، وعضوا في المجمع العلمي العربي. توفي سنة 1920 أنظر: ناصر الدين ,سعيدوني ، وآخرون , معجم مشاهير المغاربة، المؤسسة الجزائرية للطباعة , الجزائر , 1995 ، ص ص 136-193.
42.صالح , خرفي ، الجزائر والأصالة الثورية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع , الجزائر, 1977 ،ص62-63.
43.أسعد ، داغر ، مصادر الدراسة الأدبية، الفكر العربي الحديث في سير أعلامه: الراحلون 1800-1915 ، ج1 ،منشورات جمعية أهل القلم في لبنان ، بيروت، 1956، ص 264.
44.خرفي , المرجع السابق ، ص 10.
45.الشهاب، "أبناء المغرب العربي في الشرق العربي"، ج 5 ، م 13، جمادي الأولى 1356 هـ - 10 جويلية 1937، ص 222.
46.خرفي ، المرجع السابق ، ص12.
47.علي ، المحافظة، الإتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1798-1914 ، ط5، الأهلية للنشر والتوزيع ،بيروت ، 1987 ، ص133.
48.أبو القاسم سعد الله , تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954 , ج 5 , ط1 , دار الغرب الاسلامي , لبنان , ص503.
49.رغداء محمد أديب ، زيدان، "الشيخ طاهر الجزائري وحلقة دمشق الكبرى" ، مجلة التراث العربي، يصدرها إتحاد كتاب العرب بدمشق ، العدد 108، 2007 ،سوريا ، ص35. أنظر أيضا: سهيلة ، اليماوي ، "صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام 1850-1918" ، مجلة دراسات تاريخية ، العدد7 ،ربيع الأول 1402هـ/ كانون الثاني-يناير 1982، دمشق ، ص137.
50.سعد الله , تاريخ الجزائر الثقافي , ج 6 , مرجع سابق , ص323.
51.المرجع نفسه , ص 324

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)